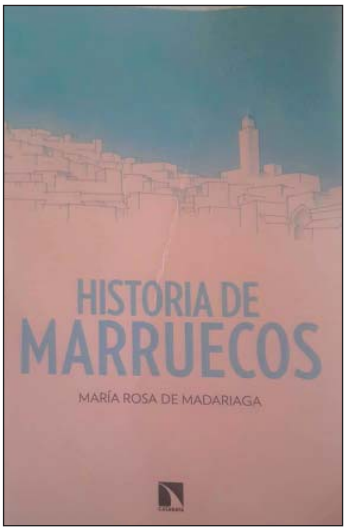

Maria Rosa Madariaca.- ***Historia de Marruecos*** **(Madrid: Los libros de la Catarata, 2017), 320p.**

شهدت الكتابات حول المغرب وتاريخه تطورا كميا ونوعيا مهما في العقود الأخيرة، حيث تعددت الإصدارات التي كان المغرب موضوعا لها، كما تعددت اللغات التي كتبت بها. ففي سنة 2006 مثلا كتب بيير ڤيرميرين كتابا بالفرنسية عن **تاريخ المغرب منذ الاستقلال**[1]. وغير بعيد، أي في سنة 2012، أصدر المؤرخ الفرنسي دانييل ريـڤي كتابا بعنوان: **تاريخ المغرب، من المولى إدريس إلى محمد السادس**، عن دار فيار الباريسية.[2] وبعد ذلك بسنة واحدة أصدرت الباحثة الأمريكية سوزان جيلسون ميلير باللغة الإنجليزية، في عام 2013، كتابا تحت عنوان: **تاريخ المغرب المعاصر**،[3] وقد ترجم الكتاب نفسه بعد سنتين على صدوره إلى اللغتين الإسبانية الصينية.

ومؤخرا خاضت المؤرخة الإسبانية ماريا روسا دي ماداریاگا (Maria Rosa Madariaga)، هي الأخرى، مغامرة إصدار كتاب في تاريخ المغرب، دون أن تحدد فترة معينة لهذا التاريخ، وهي واعية كل الوعي بصعوبة وتعقيد هذه المغامرة. وحتى لا تسقط في فخ التفصيل الذي ربما قد يأخذ منها وقتا طويلا، فضلت الاسترسال في كتابة تاريخ المغرب من خلال إصدار تعتبره هي نفسها غير خاضع، من حيث الشكل، لصرامة

1. Pierre Vermeren, *Histoire du Maroc depuis l'indépendance* (Paris: La Découverte, collection. Repères. Histoire, n° 346, 2006).
2. Daniel Rivet, *Histoire du Maroc. De Moulay Idrîs à Mohammed VI* (Paris: Fayard, 2012).
3. Susan G. Miller, *The History of Modern Morocco* (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2013).

البحث الأكاديمي في الكتابة وما تتطلبه من هوامش وتدقيقات قد يؤجل عنها تحقيق هذا الحلم الذي لازمها في مسيرتها العلمية.

ويتكون هذا الكتاب الذي يحمل عنوان: **تاريخ المغرب**، من مقدمة وثلاثة أجزاء وفصل ختامي، بالإضافة إلى فهرس للمفردات العربية والأمازيغية وفهرس للسلاطين والملوك المغاربة، وولات وخلفاء السلطان بمنطقة الحماية الاسبانية، والمفوضون السامون لإسبانيا بالمغرب والمقيمون العامون لفرنسا بالمغرب، وملحق للخرائط، ثم قائمة للكتب والمراجع المعتمدة في الكتاب.

وفي مقدمة كتابها، أوضحت ماداریاكا أن تأليفه كان بإيعاز من دار النشر لوس ليبروس دو لا كاطاراطا (Los Libros de la Catarata)، على الرغم من أن الموضوع ظل يراودها طيلة سنوات بحثها في تاريخ المغرب، وخاصة في فترة الحماية. حيث كرست المؤرخة الإسبانية كثيرا من أبحاثها لتاريخ المغرب المعاصر، مع التركيز على علاقات هذا البلد مع جارته إسبانيا منذ القرن التاسع عشر، غير أنها اعتمدت مراجع متعددة ومتنوعة عند معالجتها بقية الحقب التاريخية المتعلقة بالمغرب، وهو ما فصلته في مقدمة الكتاب.

وتناولت المؤرخة في القسم الأول الذي يتكون من خمسة فصول، تاريخ المغرب تحديدا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وصولا إلى الأسرة العلوية. أما الفصل الأول فهو عبارة عن تقديم للجغرافيا الطبيعية والبشرية للمغرب، وركزت فيه على الامتداد المغربي في المكان وتنوعه البشري والثقافي الغني، كنتاج للتنوع الحضاري للشعوب والحضارات التي عرفها عبر تاريخه، كما ركزت على التنوع الطبيعي للأراضي المغربية بجبالها وسهولها ووديانها وشواطئها وصحاريها.

ويمتد الفصل الثاني من القرن الثاني عشر قبل الميلاد، على الرغم من التركيز فيه على المرحلة القرطاجية والرومانية في المغرب، مرورا بالحروب البونيقية وتفاعل المغاربة الأمازيغ مع كل هذه المحطات حسب الحاكم والظروف السياسية لكل مرحلة، إذ حاولت ماداریاكا أن تبرز الطبيعة الاستقلالية للأمازيغ وتحالفهم حسب الظروف سواء مع روما أو قرطاجة، وقد خصصت حيزا مهما للحديث عن مملكة نوميديا والملك ماسينيسا وجوبا الثاني.

كما تناولت المؤرخة الإسبانية مرحلة وصول الإسلام إلى العالم الأمازيغي كما سمته مع الإشارة إلى التحولات التي أحدثها هذا المعطى منذ القرن السابع الميلادي وإلى التوجهات ذات الطابع الطائفي، خاصة المتعلق منها بالخوارج والشيعة وحضورهم في فضاءات شمال إفريقيا، وهو الموضوع، حسب ماداریاكا، الذي لم يتلقى اهتماما كبيرا من قبل المؤرخين العرب، فخصصت له حيزا مهما في سياق استعراضها لنشأة مملكة الأدارسة بالمغرب والأغالبة في إفريقية. في حين لم تعالج بما يكفي موضوع فتح الأندلس إلا في معرض تناولها للشق المتعلق بموقف الأمازيغ بعد الفتح وعدم رضاهم عن طريقة توزيع الأراضي التي لم تكن متكافئة بين العرب والأمازيغ.

وخصصت الباحثة الاسبانية الفصل الثالث للدولتين الأمازيغيتين الكبيرتين، المرابطية والموحدية؛ إذ تميز المرابطون بأصولهم الصحراوية اللمتونية الممتدة إلى منطقة أدرار بالصحراء، وبتوحيد المغرب بأكمله على أساس المذهب المالكي وغلبة سلطة الفقهاء في نظام الحكم لديهم. كما لعبوا دورا أساسيا في استمرار الإسلام بالأندلس من خلال حملات يوسف بن تاشفين. هذا في حين أنها اعتبرت الموحدين أكثر انفتاحا في ممارساتهم الدينية بحكم عدم تضييقهم لباب الاجتهاد في الدين، بل ذهبت الباحثة إلى القول بأن فكرة المهدوية قد تعتبر على المستوى السياسي نوعا من التشيع عند الموحدين وأن السياسة إلى جانب الأخلاق والدين متداخلان ومرتبطان ببعضهما الآخر. وشكل الموحدون استثناء في نظر ماريا روسا دي ماداریاكا باعتبارهم يمثلون أول دولة ذات أصول مغاربية استطاعت توحيد المنطقة المغاربية تحت راية واحدة منذ عهد عبد المومن، قبل أن تعرف هذه الدولة أوجها على جميع المستويات مع السلطان يعقوب المنصور، سواء في الأندلس أو المغرب. كما أن هذا الأخير قد ابتعد شيئا ما عن تعاليم ابن تومرت وأسس منهجا دينيا يعتمد القرآن والسنة فقط. ولم يفت الكاتبة أن تشيد بما وصل إليه الموحدون على مستوى الهندسة والمعمار وما خلفوه من مآثر لازالت تشهد على عظمة حكمهم، قبل أن يعرف المغرب انقساما في أواخر هذا الحكم منذ القرن الثالث عشر، حين أصبح المغرب الكبير الموحدي منقسما إلى إفريقية الحفصية، والمغرب الأوسط مع بني عبد الواد والمغرب الأقصى مع بني مرين.

وخصصت المؤرخة الفصل الرابع من تأليفها للمرينيين والوطاسيين واهتمت بدورهما في الدفاع عن مسلمي الأندلس على الرغم من الصعوبات التي اعترضهما في

محاولاتهم الرامية إلى لم الشمل الداخلي بالمغرب. وقد أثارت باهتمام بالغ فترة ألفونصو الحكيم الذي كان ميالا للحوار أكثر منه إلى الحرب، وعددت الامتيازات التي استرجعها أبو يوسف المريني لصالح المسلمين في بلاد الأندلس. كما أنه لم يفتها الحديث عن حالة الشتات بالمغرب على العهد الوطاسي وبداية توغل الإسبان والبرتغال أواخر القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر. وكانت لمحاولات التوغل هذه، حسب المؤرخة، آثار مباشرة في انبعاث روح المقاومة والهوية الإسلامية بالمغرب، ومعها التفاف الناس حول الزوايا والمناداة بالجهاد ضد الأطماع المسيحية، البرتغالية منها على وجه الخصوص. وهنا برز التصوف الطرقي وبدأ تأثيره بشكل مباشر وفعلي في المجتمع أمام ضعف الدولة في الصمود أمام المسيحيين. وخلال هذه الفترة، ومباشرة بعد سقوط غرناطة سنة 1492، بدأ الاسبان والبرتغال في التوغل بأراضي المغرب شمالا وجنوبا.

وتنهي الباحثة الاسبانية القسم الأول بالفصل الخامس الذي خصصته للسعديين والعلويين. لقد برز نجم السعديين، ذوي الأصول العربية، في جنوب المغرب، باعتبارهم مجاهدين ضد الوجود البرتغالي. ولم يفت الكاتبة أن تثير اختلاف محمد الشيخ مع الأتراك ومحاولة تحالفه مع الإسبان، إلى أن لقي حتفه على يد بعض الأتراك بعد مؤامرة دبرها باشا الجزائر، ليخلفه ابنه عبد الله الغالب بالله الذي تحالف هو أيضا مع الاسبان ضد الملك سليمان وتنازل لهم على باديس. وقد خصصت المؤرخة حيزا مهما كذلك لمعركة وادي المخازن وانتصار عبد الملك فيها وخلافة المنصور له. وقد كان لهذا الأخير، حسب ماداریاکا، الفضل في إعادة الهيبة للمغرب أمام الحكام المسيحيين حيث أعاد سفاراتهم، ونشط التجارة والملاحة وصناعة السكر التي لعب فيها اليهود دورا مهما، وعهد بتنظيم جيشه إلى الأتراك، كما أرسى البنيات الأساسية للجهاز الحاكم التي استمرت في المغرب حتى عهد الحماية.

أما العلويون، حسب المؤرخة الاسبانية، فقد كان دورهم من جديد هو إعادة توحيد بلاد المغرب الذي أصبح يحمل اسم الدولة الشريفة، تحت راية واحدة، وهي المهمة التي استهلها المولى رشيد الذي عمل على استرجاع مجموعة من النقط الاستراتيجية المحتلة وبعض الحصون التي يرابط بها معارضون مغاربة بالاعتماد على جيشه. وما بدأه السلطان المولى رشيد أكمله السلطان المولى إسماعيل معتمدا بدوره على التنظيم المحكم للجيش. وقد احتل الحديث عن شخص المولى إسماعيل حيزا لا بأس به في هذا الفصل.

ومما تميز به هذا السلطان على مستوى علاقاته الخارجية هو تحكمه في هذه العلاقات مع الأوروبيين، أما عن الأتراك، وحتى يتفادى مواجهتهم، وهو على بينة بما كان يكيدون له من المكائد داخليا بالتحريض على كثير من التمردات، فقد قام بتحصين الجهة الشرقية، وهو ما حال دون تمكينهم من الحصول على منفذ يسهل دخولهم إلى المغرب. غير أن نعمة الولد الكثير انقلبت نقمة على المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل، إذ كثرت النزاعات على الحكم وتفاقمت في عهد ابنه المولى عبد الله الذي لم يحتل حيزا هاما في الكتاب، وانتهى الأمر بتولية سيدي محمد بن عبد الله الذي حقق كثيرا من الإنجازات على المستوى الدبلوماسي في علاقاته بالدول الأوروبية، وهو ما اعتبرته المؤرخة بداية لاستشراء أطماعهم في المغرب من جديد.

أما القسم الثاني من الكتاب فيتكون من ثلاث فصول، ويغطي مرحلة بداية المد الاستعماري للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم مما أسمته الباحثة بسياسة الانغلاق التي نهجها المولى سليمان، لم يفلح ابنه المولى عبد الرحمان في صد الأطماع الاستعمارية الأوروبية، ذات البعد الاقتصادي منها على وجه الخصوص، وذلك على الرغم من الغطاء الديني الذي حملته حينما تبنت فرنسا حملة تخليص "الأمم المسيحية" من العبودية والقرصنة. وهو ما جعل المغرب يحابي إنجلترا التي كانت مؤثرة بشكل كبير في سياسته الأوروبية طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، منذ اتفاقية التجارة التي وقعتها معه سنة 1856، وكذا خلال الحملة الاسبانية على المغرب المعروفة بحرب تطوان أو ما يسميه الإسبان بحرب إفريقيا (1859-1860). وقد كان لهذه الحرب إلى جانب الهزيمة في معركة إسلي أمام الفرنسيين دور كبير في الكشف عن معالم ضعف المغرب، وهو ما جر عليه أطماع الأوروبيين وبداية عهد سلطة القناصلة في أهم المدن الساحلية المغربية. وقد خصصت المؤرخة حيزا مهما في هذا الفصل لاستعراض الأحداث التي سبقت توقيع معاهدة الحماية سنة 1912، وخاصة في منطقة المغرب الشمالي، وتناولت مختلف الاتفاقيات الإقتصادية والأمنية مع إسبانيا في هذه المنطقة.

أما الفصل السابع، فيغطي المرحلة الممتدة من بداية عهد الحماية إلى اندلاع حرب الريف. وقد استعرضت فيه الباحثة الخطط الفرنسية التي ساعدت على توغلها بالمغرب والسياسية التي نهجتها في اتفاقاتها مع إسبانيا، ومكنتها من استغلال التمردات الداخلية ضد السلطان المولى عبد العزيز لصالحها. كما لم يفت المؤرخة الاسبانية الاهتمام بتقديم

بعض التفاصيل في خضم الفوضى التي عرفها المغرب عند بداية القرن العشرين، وكذا الطريقة التي نهجها الفرنسيون للدفع بالمولى عبد الحفيظ إلى التنازل عن الحكم. وقد خصت الباحثة الماريشال ليوطي بقسط هام من هذا الفصل، للحديث عن استراتيجياته التوسعية ("بقعة الزيت")، وميولاته إلى الملكية والحكم الشمولي. ووعيا منه بخصوصيات البنيات الاجتماعية للمغرب ولتاريخه كدولة عريقة ميالة إلى الاستقلال وتوفره على بنيات إدارية قابلة للتطوير، حاول اليوطي أن لا تكون مهمته عسكرية فحسب. ولذلك عمل على صناعة حاكم يرعاه ويكونه عن قرب حتى يلقى الاحترام اللازم من قبل جميع المغاربة ويحشد الإجماع حوله كأمير للمومنين، فقام بإبعاد المولى عبد الحفيظ واختار بدلا عنه أخاه الأصغر الأمير مولاي يوسف. وهكذا حكم ليوطي المغرب متخفيا وراء سلطة وهمية، وكأنه يقيم بالمغرب النظام الملكي الشمولي الذي كان يريده لفرنسا بدل النظام البرلماني.

وختمت الباحثة القسم الثاني من كتابها بفصل يغطي الفترة الممتدة من حرب الريف إلى قيام الحرب العالمية الثانية، فتناولت بالحديث تجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي مرورا بنشأته ومساره العلمي واشتغاله مع الإسبان قبل الانقلاب عليهم وقيادة الحركة التمردية ضدهم بالريف. كما أسهبت مادارياكا في الحديث بالتفصيل عن مراحل معركة أنوال ومدى تأثير هزيمة الإسبان فيها على الوضع الداخلي بإسبانيا. ومن بين المواضيع التي عالجتها الباحثة في هذا الفصل، والتي قلما يعيرها المؤرخون الأوروبيون اهتماما، هي الحركة الوطنية المغربية، خاصة وأن هذه الحركة التي كانت في بدايتها ذات طبيعة ثقافية، قد نشأت بالمنطقة الإسبانية منذ عشرينيات القرن الماضي ووجدت في هذا الفضاء متسعا أكثر رحابة مما كان عليه الأمر في منطقة الحماية الفرنسية. ولهذا كان من الضروري أن تربط المؤرخة علاقة هذه الحركة بإسبانيا وبمدى تفاعلها مع الحرب الأهلية الإسبانية.

ويغطي الجزء الثالث والأخير الفترة الممتدة من الحرب العالمية الثانية إلى عهد الملك محمد السادس. وقد افتتحته المؤرخة الإسبانية بفصل يبدأ مع الحرب العالمية الثانية إلى غاية استقلال المغرب. وقد قدمت فيه معطيات حول تطور المغرب في منطقتي الحماية على المستوى الإقتصادي والديمغرافي والوعي السياسي. كما ركزت على علاقة الحركة الوطنية المغربية بالجنرال فرانكو الذي كانت ترى فيه المخلص من الاستعمار الفرنسي قبل أن يتأكد لها عدم وفائه بعهده وتتجه نحو المقاومة. وقد عرضت لنشأة الأحزاب

المغربية واهتمت بالدور الذي اضطلعت به في استقلال المغرب بعد نفي السلطان محمد بن يوسف. ثم خصصت الفصل الأخير لاستقلال المغرب حتى الفترة الحالية. وقد عرجت على نشأة جيش التحرير بالمغرب وأحداث الريف، كما وقفت عند شخصية المهدي بن بركة والمحاولات الانقلابية على الملك الحسن الثاني وسنوات الرصاص وما صاحب ذلك من تغير معالم الصراع بين الأحزاب السياسية والسلطة حسب كل مرحلة إلى غاية تسعينيات القرن الماضي، لتقف من خلال فقرة بأكملها عند قضية الصحراء. وقدمت الباحثة الإسبانية في هذا السياق عرضا طغى عليه الوصف والتصور المعروف والمتداول بكواليس الأمم المتحدة. وأنهت الباحثة كتابها بفصل ختامي عن فترة حكم الملك محمد السادس، وهذا على الرغم من أن هذه الفترة تدخل في ما يسمى بالتاريخ الراهن، لتقف عند أهم الإصلاحات التي صاحبت مرحلة حكمه، مثل مدونة الأسرة وتقنين التعدد وترسيم الأمازيغية. غير أن هذه الإصلاحات في نظر المؤرخة الإسبانية لا تعتبر كافية نظرا للعمل الكبير الذي لازال ينتظر المغرب، وأن على هذا البلد السير بإيقاع أسرع على مستويات السياسة وحرية التعبير وإرساء الديمقراطية.

وعند قراءتنا لهذا الكتاب، نجد أنفسنا وبالضرورة أمام تاريخ مواز لإسبانيا، وكأن لسان حال بمريا روسا دي ماداریاكا يقول بأن تاريخ المغرب لا يمكن أن يكتب بمعزل عن تاريخ البلد الجار الشمالي، تاريخ تقاسم فيه البلدان كثيرا من المحطات والأحداث التي نسجت تاريخا يبرز خصوصيتهما، وهو في الوقت ذاته جواب صريح على كل من يحاول التضليل وتقديم المغرب بأنه دولة حديثة نشأت مع استقلاله عام 1956، وخاصة الإسبان ممن يحاولون نزع صفة الدولة/الأمة عن المغرب التي تميزه عن العديد من الدول الحديثة.

عبد العالي بروكي
جامعة محمد الخامس بالرباط